الفصل الرابع عشر

في الرحلة العلمية وتاريخ مدينة طيبة

رعاك الله أيتها اليراعة ولازال غيث مدادك يسقي البراعة وما عليك الآن إلا أن تخبرينا بتاريخ بنائها وتقص علينا طرنا من أحسن أبنائها ثم إعطف على وصف الأطلال وتوخ الصدق في المقال

أما تاريخها فقد ذكر ماريت باشا في بعض مؤلفاته أن إسم هذه المدينة لم يظهر للوجود إلا بعض إنقراض العائلة العاشرة ومن المستحيل أن نعرف شيئًا من أخبارها قبل ذلك العهد لأن الفترة التي وقعت بين العائلة السادسة والحادية عشرة جعلتنا نجزم بأن مصر كانت تحت يد دولة أجنبية أو كانت غارقة في بحر الفتن الداخلية ولما طهرت مدينة طيبة أخذت سلسلة التاريخ ترتبط ببعضها مرة ثانية وإذا سألنا سائل وقال هل كان تمدنها وقت نشأتها هو نفس تمدن ذلك العهد القديم الذي شاهدناه منقوشا في مقابر سقارة وصيدوم وزاوية الميتين وقصر الصياد مدة العائلة السادسة المنفيسية أجبناه بأننا نرى ؟؟ بعيدًا لأن هيئة الأموات والنصوص البربائية والقواعد الكتابية جميعها مغاير لما كان مستعملًا عند تلك الدول القديمة ومن المستغرب أن الأموات التي وجدت مدفونة في ذراع أبي النجا (بطيبة) أغلبها عبيد وتوابيتها عبارة عن كتلة من خشب مفرغة على قدر جسم المقبور فيها وهذا النوع لا يوجد الآن إلا في المقابر القديمة ببلاد السودان وهذا هو ما حملنا على القول بأن أحياء التمدن القديم وظهور مدينة طيبة نشأ عن حدثة سياسية تعزي لإغارة أهل الجنوب على مصر

أما أقدم آثارها فهي الأروقة المنحوتة في الصخور ثم الآبار التي كانت مستعملة للدفن مدة العائلة الحادية عشرة وكلها بذراع أبي النجا وقد يرى به للعائلة الثانية عشر بعض مقابر كما يرى لها جهة الكرنك بعض آثار مهمة باقية إلى الآن وفي هذه المدة أخذت مدينة طيبة ترقى في مراقي التقدم وتسمو في سماء الحضارة وتشيد أركان الرفاهية إلى أن أغارت عرب الرعاة أو العمالقة على مصر فإرتعدت له فرائص الأمة ووجلت منها الملوك وتشوشت الأحوال وإضطرب الناس وخمدت جمرة همتهم وإنعدمت روح الرفاهية من بينهم فحصل خلو في التاريخ المصري مدة قرون

متوالية وإنحاز الوطنيون إلى الصعيد وإشتغلوا بما هو الأهم وهي مكافحة عدوهم الألد وعدلوا عما كانوا بصدده من تشييد معابدهم وقصورهم ومازالوا يعانون الويل ويقاسون الأهوال إلى ظهور العائلة الثامنة عشرة التي أجلتهم عن مصر وكان منها الملوك الامنوفيسيين والطوطوميسيين وقد سبق ذكر ذلك ولهذا العهد كانت طيبة عبارة عن الجهة المعروفة بإسم الكرنك فقط ثم أخذت في الظهور دفعة واحدة وإتسع نطاقها ورفلت في حلة المدنية حتى انفردت من بين جميع المدن المصرية

وإذا نظـــــرت الى الـــــبلاد رأيتهـــــا   تشـــقى كمـــا تشـــقى الرجـــال وتســـعد

وشيد بها الملك أمونوفيس الأول جزأ من معبد الكرنك وهو الآن مهدوم وأقام على بابه مما يلي الجنوب الغربي لبرج المعبد تمثالًا هائلًا يدل على ما كان له من علو الهمة في مزاولة الأشغال الجسيمة وبنى به الملك طوطوميس الأول جملة إيوائات وأبراج وأقام به مسلات حتى جعل منظره من أحسن المناظر وأبهجها وشرعت الملكة (حتزو) مدة وصايتها على أخيها في تشييد البرج الثالث من جهة الجنوب وبنت الأروقة الجانبية التي بالمعبد وشيدت معبد الدير البحري الغريب الوضع تذكارًا لنصرتها على أعدائها ببلاد (بون) (بلاد اليمن أو الحجاز) أما مدة طوطوميس الثالث وأمونوفيس الثالث فأخذت مدينة طيبة في العظم وسمت إلى أوج الرفاهية أما الأول فقد أدخل في معبد الكرنك الزيادة التي تمت هيئته بها وشيد على الجانب الغربي للنيل معبدًا جليلًا وهو الآن مهدوم وأسس معبد مدينة (أبو) وغير ذلك من المعابد وأما الثاني فلم تكن همته دون همة أسلافه لأنه شيد جمع القسم الجنوبي من معبد الأقصر كما شيد هيكل المعبودة (موت) والمعبود (أمون) ووضع صفين من أصنام أبي الهول على حافتي الطريق أمام هيكل المعبودة (خنسو) بالكرنك وبنى العمارة الضخمة التي خلف صنمي (ممنون) بالشاطئ الغربي للنيل ثم ظهر أمونوفنيس الرابع الزنديق ولم يفعل شيئًا بمدينة طيبة غير محو إسم المعبود أمون من أغلب هياكلها ولما تبوأ الملاك هورروس تخت الملك بمدينة طيبة أعاد الديانة إلى ما كانت عليه وأخذ في إعلاء شأن المدينة بما صنعه من المباني النفيسة والعمائر الحسنة فأنه بنى في معبد الكرنك البرجين العظيمين جهة الجنوب ووضع صفين من الأصنام على جانب الطريق الموصل من البرج الأول إلى معبد

(موت) ونصب بعض الأعمدة التي في معبد الأقصر ولما إستولت العائلة التاسعة عشرة

أخذت الأشغال تدور على محورها القديم فشرع رمسيس الأول في عمل قبره المشهور الذي في باب الملوك وشيد في معبد الكرنك البرج الذي أمام رحبة الأعمدة وفي أيام سيتي الأول إرتقت درجة الرسم إلى غايتها القصوى وقد سبق ذكر ذلك عند الكلام على معبد العرابة المدفونة وهو الذي ابتدأ بعمل رحبة الأعمدة بالكرنك وأقام به ثمانية وسبعين عمودًا موجودة به الآن ضمن مائة وأربعة وثلاثين وهي لضخامتها وإحكام صنعتها وعلو شأنها تدل على ما كان لمهندسي تلك الإعصار من القدرة والإقدام والدقة في تشييد المباني وقد أسس هذا الملك جهة القرنة معبدا تذكارًا لإسم أبيه رمسيس الأول وحفر بسيف الجبل في باب الملوك تلك المقبرة الغريبة الشكل التي ينشرح من رؤيتها جميع علماء الآثار لم يجدونه بها من كثرة النصوص والرسوم لكنهم لا يخرجون منها إلا وهم ساخطون على السائحين من الأفرنج الذين تطرفت أيديهم إلى هذا الأثر الجليل فأتلفوا بعض محاسنه وفي سنة ١٨٩٢ كنت توجهت إلى تلك الجهة فأخبرني حسن أفندى حسني مفتش القرنة أن أحد سائحي الإنكليز دخل في هذا القبر مع رفقائه وبعد أن تفرج وابتهج وإنشرح صدره وتنعم باله بال على وجه أحد الصور ثم خرج وترك الأثر منجسًا بأثره فقلت له ربما كان هذا من بعض خصاله عند رؤيته الأشياء المستحسنة أو لعله كان مريضًا بسلس البول أو كان ذلك علامة عنده على الإستحسان أما رمسيس الثاني فلم يتفرغ لتقدم هذه المدينة كأسلافه لأنه بذل عنايته في نشر آثاره الكثيرة بوادى النيل ومع ذلك فقد أتم بناء رحبة الأعمدة التي بهيكل الكرنك وأحاطه بسور عظيم وشيد رحبة معبد الأقصر ومن المستغرب أن هذا الملك الذي خفق ذكره في الخافقتين وسارت بسيرته الركبان وملأ حافتي النيل بآثاره لم يهتم بعمل قبر فاخر كأبيه وها هو قبره في باب الملوك مجرد عن اللطائف عاطل عن المحاسن ليس به ما يروق في عين الناظر ولا ما يستحق الوصف لكن جبر هذا الخلل بتشييد معبد الرمسيوم المشهور جهة القرنة ولم يشيد من قام من بعده من الملوك أثرًا جديدًا جديرًا بالذكر ماعدا الملك رمسيس الثالث فإنه أسس معبد (خنسو) ومعبد الحوش الأصلي بالكرنك وشيد مدينة (أبو) وصنع في باب الملوك القبر المعروف الآن بقبر الآلاتية لوجود صورتهم به وبهذا الملك إنتهى دور مجد طيبة وفي أيام العمالة الثانية والعشرين البوبسطية صنع بعض ملوكها حوشًا عظيمًا أمام معبد الكرنك ويرى إسم الملك طهراقة (الحبشي) منقوشا في أحد جوانب هذا المعبد الكبير وفي معبد مدينة (أبو) وبنى بعض ملوك البطالسة معبد دير المدينة وهو لا شيء ثم البابين الجليلين اللذين بالكرنك وبذلك إنقضت أيام هذه المدينة وأدبرت أوقاتها ولما مات (أسورادون) أحد مول

الاشوريين أعاد (سردنابال) الأشوري على مدينة طيبة ودمرها فجاء طهراقة وأصلح بعض ما أفسده ثم أغار عليها ثانيا وأسلمها إلى السلب والنهب وأوقع بها غاية الكرب وقد أجمع المؤرخون على أن قمبيز ملك العجم إستولى على مصر وأنزل بها الدمار وخرب مدينة طيبة ولكن لم يقم دليل قطعي على صحة ذلك ومن المحتمل أنه نبش بعض مقابر باب الملوك وغيره ثم إنتهى أمر هذه العاصمة بحصارها وخرابها على يد (بطليموس لاطيروس) وقد سبق ذكر خرابها في الفصل السادس وسيأتي أيضًا أما هذه التلال التي تراها الآن في تلك الأطلال سيما جهة الأقصر فهو أن من عادة أهل تلك البلاد أن يبنوا منازلهم باللبن ومتى آلت إلى السقوط هدموها وأصلوا أرضها بما فيها من الأنقاض وبنوا فوقها مساكن أخرى غيرها وهكذا وبهذه الحالة صار جانب عظيم من معبد الأقصر تلد كبيرًا يبلغ ارتفاعه نحو الستة أمتار وستر كثيرا من المباني الأثرية و بنى الناس فوقه المنازل والمباني منها مسجد العارف بالله سيدي أبي الحجاج وهو الصعوبة التي كانت في طريق مصلحة الآثار المانعة من إكتشاف جميع باقي المعبد المذكور واليك طرفًا مما قاله سپرو في أحد نشراته العلمية (إذا دنى السائح من قرية الاقصر رأى معبدها في حالة يرثى لها ونظر أكواخ فقراء الناس وعششهم حول برجيه الشامخين فحجبت أكثر من نصفهما عن عين الرائي وكانا يزينان باب المعبد وحوشه ورحبته من جهة الشمال وإذا دخله الانسان يرى به نحو ثلاثين منزلًا وثمانين طاولة مواشي مرتكزة على أعمدته وملتصقة بجدره ورفارفها مثقلة بالطوب الني الذي بنوا به تلك المنازل ومأذنتي سيدي أبي الحجاج قائمتين بوسط هذا المجموع الغير مرئى ويرى تحت رحبة الأعمدة الواصلة من الحوش الشمالى إلى المعبد فقس منزلين أحدهما لقاضي إسنا والآخر لمصطفي أغا عياد وكيل أشغال دولة الإنكليز والبلجيقه والروسيا أم وجهة المعبد من جهة الغرب المطلة على النيل فكانت محجوبة بجملة مباني منها قشلاق العسكر والسجن والبوسطة ومخازن الحكومة ومباني جسيمة متخربة لدولة فرانسا ملكتها من نحو الخمسين سنة وخلف هذا الخراب قطعة أرض براح بها كثير من الأنقاض والجدر المنقضة والبويتات الصغيرة المجتمعة مع بعضها ثلاثًا ثلاثًا أو أربعة أربعة ويرى بين قواعد العمد بالمعبد مراحات للغنم وزرائب للمعز وأبراج للحمام مصنوعة من الفخار ومشيدة على ما بقى من أرض المعبد تعلو عليها بأكثر من خمسة عشر مترًا وكل قطع الأعمدة وأحجار الجدر والأسوار التي لم يدعها أحد ملقاة هناك كأنها مقاطع الأحجار مباحة للعامة يقصدها كل من أراد البناء ويأخذ منها ما يشاء ولم يمنعه أحد وفي سنة ١٨٧٩ ميلادية أشهرت مديرية قنا هذا المعبد للبيع ولم تخبر مصلحة الآثار بذلك

فإنتهز أحد الأفرنج هذه الفرصة وإشتراه لكي يعمل به فندقا (لوكنده) و صمم على أن يوقع من المعبد إثني عشر عمودًا ليبني بأحجارها دورين بها ولما شرع في العمل أخبر أحد السائحين ماريت باشا فبادر وأجرى ما يلزم لفسخ البيع وعتقت مصر من وصمة هذا العار إلى آخر ما قال)